

بواعث الاغتراب في مدونة سبط ابن التعاويذي

أ.د. عماد جغيم عويد

جامعة البصرة/ كلية التربية للبنات

زينة حسن جبار

جامعة ميسان / كلية التربية

الملخص:

يتسم شعر سبط ابن التعاويذي بنزعة وجدانية عميقة، تتبع من معاناة شخصية انعكست بوضوح في تجربته الشعرية، إذ يعدّ الاغتراب أحد أبرز الثيمات التي طبعت نتاجه الأدبي هذا الاغتراب، لا يظهر بوصفه موقفًا فكريًا أو رؤية فلسفية مجردة فحسب، بل يتجلى كحالة شعورية حادة، فرضتها عليه ظروفه النفسية والجسدية والاجتماعية.

وتعدّ العلل النفسية من أبرز بواعث الاغتراب في شعره، ويأتي في مقدمتها العمى، الذي أفقده القدرة على الاندماج في العالم الحسي، وحرمه من كثير من لذائذ الحياة، فغدا العمى رمزًا لفقدان المعنى والإحساس بالعجز أمام الزمن والمصير، كما أن الفقر لعب دورًا محوريًا في تعميق هذا الاغتراب، إذ كان الشاعر يشعر بانسحاق الذات في ظل قلة ذات اليد، مع ما يحمله ذلك من امتهان وحرمان.

ولم يكن الشيب مجرد مظهر من مظاهر التقدم في العمر عند سبط ابن التعاويذي، بل حمل في شعره دلالات نفسية ثقيلة، تعكس فقدان الحيوية والشعور بالخذلان من تقلبات الدهر، كما أن المرض والعجز الجسديين يبدوان في شعره علامات على انطفاء الحضور الذاتي، وتآكل القدرة على مقاومة الآلام أو الإسهام الفاعل في مجتمعه.

وإن هذه البواعث مجتمعة جعلت من الاغتراب لدى سبط ابن التعاويذي ظاهرة متجذرة في ذاته الشاعرة، لا بوصفه موقفًا مؤقتًا، بل كقدر وجودي يتعذر الفكاك منه، ومن خلال استبطان هذه التجربة، استطاع أن يصوغ خطابًا شعريًا متماسكًا، صادق النبوة، يحتفي بالشكوى، ويعبر عن ألم الذات الإنسانية في مواجهة واقعه القاسي. وقد جاء هذا البحث ليتناول مظاهر الاغتراب في شعر سبط ابن التعاويذي من خلال أبرز بواعثه النفسية، وقد قسمناه إلى مقدمة تشمل التعريف بمفهوم الاغتراب، وقد تناولنا في البحث بواعث الاغتراب النفسية في شعر سبط ابن التعاويذي من خلال محورين رئيسيين، سعى كلُّ منهما إلى تحليل جانب من المعاناة الذاتية التي طبعت تجربته الشعرية بطابع الأسى والانكسار.

فقد خُصص المحور الأول لدراسة الاغتراب الناتج عن العمى والتقدم في العمر، لما لهما من أثر مباشر في تعزيز الشعور بالعجز، والانفصال عن الواقع، وفقدان الصلة بالحياة النشطة والمجتمع الفاعل. فالعمى لم يكن مجرد حالة جسدية، بل حالة شعورية عمقت العزلة، وجعلت العالم يبدو مغلقًا ومظلمًا في نظر الشاعر، في حين كان الشيب والتقدم في السن رمزًا للذبول والخذلان، واستشعار النهاية، وما يرافق ذلك من أسى داخلي وحنين إلى زمن القوة والشباب.

أما المحور الثاني، فقد تناول الفقر بوصفه باعثًا اجتماعيًا ونفسيًا بارزًا للاغتراب، إذ أدى إلى شعور دائم بالنقص، والانكسار أمام قسوة الحياة، والعجز عن تحصيل الكرامة المادية والمعنوية. وقد كان الفقر في شعره أكثر من تجربة معيشية، بل حالة نفسية ملازمة، عبّر عنها الشاعر بنبرة مؤلمة تعكس ضياع الذات في عالم لا يرحم الضعفاء.

وتهدف هذه المحاور إلى الكشف عن الأبعاد النفسية العميقة التي شكّلت وعي الشاعر المغترب وإبراز كيف أن الاغتراب لم يكن عنصرًا عارضًا في شعره، بل مكونًا أساسيًا في رؤيته الشعرية.

وقد خُتم البحث بخاتمة تلخص النتائج التي توصل إليها، مرفقة بـ هوامش توثيقية دقيقة، وثبتت بالمصادر والمراجع التي استند إليها في إعداد هذه الدراسة.

كلمات مفتاحية: (سبط ابن التعاويذي، الاغتراب، العمى، الفقر، الشيب، المرض، العجز، الشعر العباسي، البواعث النفسية، معاناة الشاعر).

The Motives Of Alienation In The Blog Of Sibt Ibn Al-Ta'awithi

Prof.Amad Jagheim `Aweid

University of Basra / College of Education for Women

Zeina Hassan Jabbar

University of Maysan / College of Education

Abstract:

The poetry of Sibt Ibn Al-Ta'awithi is characterized by a deep and emotional tendency, stemming from personal suffering that was clearly reflected in his poetic experience, as alienation is one of the most prominent themes that characterized his literary production. This alienation manifests not only as an intellectual attitude or an abstract philosophical vision, but also as an acute state of feeling, imposed on it by its psychological, physical and social conditions.

Psychological ailments are one of the most prominent motives of alienation in his poetry, foremost of which is blindness, which he lost the ability to integrate into the sensory world, and deprived him of many of that life. Blindness became a symbol of the loss of meaning and a sense of helplessness in front of time and destiny. Poverty also played a pivotal role in deepening this alienation, as the

poet felt selflessness in the light of the lack of the same hand, with the humiliation and deprivation that this carries.

Graying was not just a manifestation of aging in Sibt Ibn Al-Taw'awithi ,but it carried in his poetry heavy psychological connotations, reflecting the loss of vitality and the feeling of disappointment from the vicissitudes of the age, and the physical illness and disability appear in his poetry signs of extinction of self-present, and the erosion of the ability to resist pain or contribute effectively to his society.

These combined motives made the alienation of Sibt Ibn Al-Taw'awithi a phenomenon rooted in the poetic self, not as a temporary position, but as an existential fate from which it is impossible to decomption. Through the introsperence of this experience, he was able to formulate a coherent poetic discourse, sincere in tone, celebrates the complaint, and expresses the pain of the human self in the face of its harsh reality.

This research came to deal with the manifestations of alienation in the poetry of Sibt Ibn Al-Taw'awithi through his most prominent psychological motives, and we divided it into an introduction that includes the definition of the concept of alienation, and we dealt in the research with the psychological motives of alienation in the poetry of Sibt Ibn Al-Taw'awithi through two main axes, each of which sought to analyze an aspect of the self-suffering that characterized his poetic experience with the character of grief and refraction.

The first axis was devoted to the study of alienation resulting from blindness and aging, because of their direct impact on promoting a sense of helplessness,

separation from reality, and loss of connection to active life and active society. Blindness was not just a physical condition, but an emotional state that deepened isolation, and made the world seem closed and dark in the eyes of the poet, while graying and aging was a symbol of withering and disappointment, feeling the end, and the accompanying inner grief and nostalgia for the time of strength and youth.

The second axis dealt with poverty as a prominent social and psychological effect for alienation, as it led to a constant sense of inferiority, refraction to the harshness of life, and the inability to achieve material and moral dignity. Poverty in his poetry was more than a living experience, but an inherent psychological state, expressed by the poet in a painful tone that reflects the loss of self in a world that is merciless to the weak.

These axes aim to reveal the deep psychological dimensions that shaped the consciousness of the expatriate poet and to highlight how alienation was not an incidental element in his poetry, but an essential component of his poetic vision.

The research concluded with a conclusion summarizing its findings, accompanied by precise documentation margins, and was proven by the sources and references on which it was based in the preparation of this study.

Keywords: (Sibt Ibn Al-Taw'awithi , alienation, blindness, poverty, gray hair, illness, disability, Abbasid poetry, psychological motivations, the suffering of the poet).

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه الغرّ الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد...

يُعدّ الاغتراب من أبرز أشكال الانفصال الداخلي الذي يعيشه الإنسان حين تضطرب علاقته بذاته ومحيطه، وهذه الحالة لا تنشأ فجأة، بل تتجم عن تراكم بواعث حياتية قاسية تمسّ الكيان الإنساني في أعماق أعماقه، وتتصافر لتُحدث اضطراباً وجدانياً عميقاً، تتجلّى آثاره في القلق، والحزن، واليأس، والانكفاء، والشعور باللاجدوى ومن أبرز هذه البواعث: العمى، والفقر، والشيب، والمرض، والعجز، وهي تجارب وجودية تمسّ الإنسان في صميم إنسانيته، وتنعكس في معاناته النفسية وسلوكه التعبيري، خاصة في النتاج الأدبي.^(١)

فالعمى لا يُعدّ مجرد فقدان لحاسة البصر، بل هو أحد أشدّ أنواع القطيعة الإدراكية، لأنه يُقصي الإنسان عن الواقع البصري ويحبسه في عالم داخلي مظلم، فتتضاعف اغترابه عن محيطه، ويعيش انطواءً مريراً، وقد أظهرت الدراسات النفسية والاجتماعية أن المكفوفين يعانون من عزلة نفسية واجتماعية تُعمق مشاعر الاغتراب^(٢). أما الفقر، فليس حرماناً مادياً فحسب، بل يُنتج أيضاً إحساساً بالهوان وفقدان الكرامة الإنسانية، ويؤدي إلى قلق نفسي متفاقم، إذ يتحوّل الإنسان الفقير إلى كائن مهمّش، لا يستطيع تأمين احتياجاته الأساسية، مما يضاعف شعوره بالعجز الداخلي واللاجدوى^(٣).

ويضاف إلى ذلك الشيب وتقدّم السن، وما يرتبط بهما من إحساس بانطفاء الطموح وتقلّص الدور المجتمعي، حيث يعيش الإنسان حالة من الانسحاب الصامت عن حيوية الزمن، وتضعف صلته بمحيطه ومجتمعه، فينشأ داخله شعور بالعزلة والقصور، حيث ((يعتبره البعض أنّه نذير الموت، ودليل الفوت، وسبيل الهموم إلى النفس))^(٤). وقد عبّر الشعراء عن الشيب بما يحمله من دلالات مؤلمة، فجسّدوه رمزاً للوهن وانطفاء الشباب واستشراق النهاية، كما نجد ذلك واضحاً في تصويرهم لما آلت إليه أجسادهم من ضعف، كقلة السمع، وصعوبة الحركة، والانحناء والتقوس في الظهر، وتثني الجلد، وضعف الإبصار، وتفشيّ الأسقام، وهي مؤشرات تعكس التدهور الجسدي الذي ينعكس بدوره على النفس، مؤذناً بانتهاء الدور، ومخفّفاً إحساساً داخلياً بالألم والانطفاء^(٥).

وإن هذه البواعث النفسية مجتمعة تُنتج حالات من القلق والتمرد واليأس والانسحاب، وهي انفعالات تتكرر بوضوح في نصوص سبط ابن التعاويذي، الذي عبّر عن ضيق داخلي ناتج عن ظروفه القاهرة، كالفقر والمرض والحرمان، مما أدى إلى اختلال توازنه النفسي وتفكك استقراره الذاتي.

وتتجلى في شعر بواعث الاغتراب بوضوح لافت، حيث تنعكس في تجربته الذاتية عبر مشاعر الأسى والقلق والانطواء، بوصفها استجابة لتراكم ظروف قاسية مرّ بها.

المحور الأول: العمى

ومن أبرز هذه البواعث: العمى الذي مثّل لديه عزلة إدراكية عميقة أقصته عن الواقع البصري وعزّز انفصاله عن محيطه، والمرض والشيب الذي ارتبط لديه بانطفاء الحيوية واستشعار اقتراب النهاية، مما وُلد شعوراً بالقصور والانسحاب الصامت، ويأتي الفقر ليضيف بعداً آخر من الإحساس بالهوان والتهميش، إذ أفقده القدرة على تأمين ضروراته الأساسية، وزاد من اضطرابه الداخلي. وقد أسهمت هذه العوامل مجتمعة في تكوين حالة وجدانية معقدة، عبّر عنها الشاعر في طيات شعره بانفعالات متكررة كاليأس، والقلق، والتمرد،

والاكتئاب، وهي كلها دلائل على عمق البواعث النفسية التي شكّلت محركاً أساسياً في تشكيل خطابه الشعري.

ومن أبرز تجليات هذه البواعث في شعر شاعرنا ما يتّصل بالحزن بوصفه انفعالاً وجدانياً عميقاً يعكس اضطراب الذات وتصدّع توازنها الداخلي، وقد أفاض علماء النفس في بيان هذا الشعور، إذ عرّف الحزن بأنه: ((حالة انفعالية نتيجة ألم نفساني يغمر النفس كلها، ويرادفه الهم، الغم، الكآبة، والحزن؛ أما يجعل النفس بالعرض للوقوع في مكروهه، أو فراق محبوب، وأما يحصل بالطبع لانطواء مزاجها على القلق والاضطراب))^(١) وهذا التعريف يكشف عن علاقة عضوية بين الحزن وبين القلق والاضطراب، ما يجعله مكوناً بنيوياً من مكونات التجربة الشعورية العميقة.

وفي ضوء هذه الرؤية النفسية التي تؤكد أن الانفعال الشعري لا ينفصل عن الأثر النفسي العميق، يتبيّن لنا أن الحزن في شعر سبط ابن التعاويذي ليس عرضاً عابراً، بل بنية وجدانية حاكمة، تعبّر عن تجربة داخلية مركّبة ويدعم ذلك ما قرره علماء النفس من أن: ((الانفعال حالة وجدانية عنيفة، تصحبها اضطرابات فسيولوجية حشوية وتعبيرات حركية))^(٢)، مما يعزّز فهمنا للحزن كحالة انفعالية جذرية تتغلغل في نسيج النص الشعري.

والمتمّثل في الشعر العربي عامة، وفي شعر سبط ابن التعاويذي خاصة، يدرك أن الحزن يمثل سمة بارزة، إذ إن الذات الحزينة عند انفعال الشاعر تكون: ((حالة كلية قائمة بذاتها، تكون في النفس حالة فيها، وهي رأيها يقين واحد، فإذا اعتكف عليها العقل ليفهمها خمدت وتبدلت، وعادت حالة أخرى))^(٣)، كما يُنظر إليها بوصفها ذاتاً مرتكزة على الجانب النفسي، لأن الحزن في جوهره هو: ((ألم يلّم بالنفس عند فقد محبوب، أو امتناع مرغوب، أو حدوث مكروه))^(٤) وقد أشار حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) إلى طبيعة البواعث النفسية في توليد الإبداع الشعري، مبيّناً أثر التفاعل النفسي مع الوقائع في إنتاج الانفعالات التي تغذي القول الشعري، إذ قال: ((أمور تحدث عنها تأثرات وانفعالات للنفس لكون تلك الأمور مما يناسبها أو ينافرها ويقبضها أو لاجتماع البسط والقبض والمناسبة والمنافرة في الأمر من وجهين، فالأمر قد يبسط النفس ويؤنسها بالمسرة والرجاء، ويقبضها بالكآبة والخوف، وقد يبسطها أيضاً بالاستغراب لما يقع فيه من اتفاق بديع، وقد يقبضها ويوحشها بصيرورة الأمر من مبدأ سار إلى مآل غير سار))^(٥).

وبناءً على ذلك، فإنّ البواعث النفسية في شعر سبط ابن التعاويذي لم تكن سطحية أو عارضة، بل شكّلت أساساً بنيويًا للتجربة الشعرية، وعبرت عن معاناة داخلية عميقة تغذت من واقع مأزوم وتجارب إنسانية مريرة، فتحوّلت إلى صور شعرية مشحونة بالأسى والقلق والتمزّق الوجداني.

وفي مدونة سبط ابن التعاويذي، تتجلى هذه الحالة بوضوح في شعره الذي يفيض بالأسى والضيق، نتيجة تراكم الظروف القاهرة التي واجهها في حياته، والتي أدت إلى تفكك اتزانه النفسي، وشعوره الدائم باللاجدوى، وفقدان الأمل، وهي انفعالات ناتجة عن بواعث نفسية معقدة تجسّدت في طيات النصوص الشعرية، منها اليأس، القلق، التمرد، والاكتئاب.

وتجمع المصادر التي ترجمت لسبط ابن التعاويذي على أنه أصيب في عينيه، وفقد بصره في سنة ٥٧٩ هجرية ، وأنه لزم قعر داره بعد الحادثة، وقد نظم في هذا المصاب الجلل شعراً متدفقاً بالألم^(١١)، حيث أثرت فيه نكبة العمى تأثيراً عميقاً وقال فيها شعراً كثيراً يندب شبابه ويبكي حياته التي أصبحت مظلمة قاسية ويحمل على الدهر الذي عضه بنابه حملة حقد وهزه وتتوالى حسراته على أيام لهوه وصباه وينظر بهلع الى المشيب الذي هجم على شبابه ويقذف باهاته من صدر يضيق بما فيه وقد أصبح حبيس بيته وعماه^(١٢)

لأن هذا المصاب مجرد حادثة طارئة في تجربته، بل تحوّل إلى علامة فارقة، ظلّ صداها حاضرًا في كل ما نظمه من شعرٍ بعد تلك السنة، حتى غدت شكواه من فقد البصر ثيمة ملازمة لإنتاجه الأدبي^(١٣).

ومن ثمّ، فإنّ المتأمل في شعره بعد تلك المرحلة يجد أن الحزن العميق صار الجو النفسي الطاعي على معظم قصائده، فباتت تجربته مشبعة بمشاعر الانكسار، والتأمل في الفقد، ومواجهة شبح الشيخوخة والعجز، وقد شكّلت حادثة فقد البصر في أواخر حياته نقطة تحول وجودي وأدبي.

ويأتي نموذج ذلك جلياً في قصيدته التي نظمها عقب فقدانه البصر، وهي قصيدة طويلة تجاوزت تسعة وخمسين بيتاً، يبيّن فيها وجده العميق وحزنه المكبوت، ويكشف من خلالها عن التحول الداخلي الحاد الذي أصابه بعد هذه النازلة التي شكّلت منعطفاً حاسماً في حياته الأدبية والوجدانية، ففي هذه القصيدة، ينقلنا الشاعر إلى عالم الذات الموجوعة التي أضناها الألم، وأرهقها فقدان الأمل، وهي تستعرض أيام شبابه في حسرة مشوية بأنين داخلي، فتتقاطع في هذا النص مشاعر الندم والضياع والقلق والمرارة، وكلها دلالات تعكس أثر البواعث النفسية التي تفجّرت نتيجة ما أصابه من فقدٍ جسيم.

ويظهر ذلك بوضوح في قوله من تلك القصيدة: ^(١٤)

أَتْرَى تَعُودُ لَنَا كَمَا	سَلَفَتْ لِيَالِي الْأَبْرَقِينَ
فَالْيَوْمَ يَفْرَقُ إِنْ رَأَى	نِي مِنْ بِيَاضِ الْمَفْرَقِينَ
أَنَا مِنْ هَوَى لُبْنَى وَمِنْ	فَوْدِي أَسِيرُ لُبَانَتِينَ
وَلَقَدْ نَضًا صَبَغُ الشَّبَا	بِ وَكَانَ خَيْرَ الصَّبِغَتِينَ
فَسَقَى الْحَيَا عَهْدَ الصَّبَا	وَعُهِودَهُنَّ بِرَامَتَيْنِ
إِنْ حَالَتِ الْأَيَّامُ بَيْنَ	نَ مَا رَبِّي مِنْهَا وَبَيْنِي

تمثل هذه الأبيات نموذجًا صادقًا لتجربة شعورية حادة نتجت عن بواعث اغتراب داخلية، كان في مقدمتها فقد البصر، وهو ما يُعدّ من أعنف العوامل النفسية التي تؤثر في إدراك الإنسان لذاته وعلاقته بعالمه، وتؤدي إلى شعور بالانكسار والقطيعة مع مظاهر الحياة المعتادة، يستهل الشاعر أبياته متسائلًا بحرقة عما إذا كانت ليالي الماضي الجميلة ستعود، وهي ليالٍ ارتبطت في وجدانه بالشباب والهناء، والعيش الرغيد، إلا أن هذا التساؤل لا يُعبر عن رجاء حقيقي، بل عن تلهّف يائس، يُدرك الشاعر في أعماقه أن ما مضى لن يعود، لا سيما بعد أن أصيب بالعمى، وتبدّلت حاله الجسدية.

وفي البيت الثاني، يُبرز مظهره الحالي المتغيّر، حيث بات الشيب جليًا في جانبي رأسه (المفريقين)، حتى أن من يراه يُدهش من سرعة التبدّل، في تصويرٍ دقيق لما يسببه تقدّم السن من تراجع في المظهر الجسدي، وهو ما يتضافر مع العمى في تشكيل باعث نفسي داخلي يزيد من شعوره بالتحوّل والانطفاء

أما في البيت الثالث، فيجمع بين حالين: حبّ قديم رمزت إليه (لبنى)، وحالٍ راهن عنوانه الشيب، فقد كان أسير الهوى، وأضحى أسيرًا لما حلّ بشعره من الشيب (اللّبانيتين)، فيتحوّل من أسر العاطفة إلى أسر الشيخوخة، في صورةٍ تحمل رمزية قوية تُجسّد التحوّل من الامتلاء الحيوي إلى الضعف والتراجع، مما يوسّع من دائرة ألمه الداخلي.

ثم يصف زوال صبغة الشباب، حين نضى السواد الذي كان يغطّي شعره، ويرى في ذلك فقدانًا لما هو (خير الصبغتين)، أي أن الشباب في نظره هو الأفضل والأجمل، وتعبيره هنا يكشف عن حنين ممزوج بأسى، ووعي تام بأن استعادة الماضي باتت متعذّرة.

وفي الأبيات التالية، يستدعي الشاعر مناخ الطفولة والصبا، لأنه، كما يقال، ((ذاكرة الطفولة تتفوق على مراحل ذاكرته الأخرى، لما تحمله من صفاء ونقاء ذهني باقٍ على مدى الأيام))^(١٥). فصورة المطر الذي يسقي الأرض ترمز إلى رغبته الداخلية في أن يُستعاد ذلك العهد الندي، حين كان في (رامتين)، وهو مكان اقترن في ذاكرته بالسكينة والبراءة، لكنه في حاضره أضحى موضع ذكرى لا عودة له.

وأخيراً، يُقرّ صراحةً بأن الأيام قد حالت بينه وبين مآربه، وهو اعتراف بواقع لا يُمكن تغييره، فالأحلام والغايات التي كان يسعى إليها، باتت بعيدة المنال، بسبب تغيّر الزمن، وتحولات الجسد، وتراجع الطاقات. ويُفهم من هذا البيت أن الزمن صار قوة معطّلة فصلت بينه وبين ذاته الحقيقية، وأقصته عن ماضيه ورغباته، فزادت مشاعره بالخذلان والانفصال.

وعليه، تتجلى في هذه الأبيات ملامح البواعث النفسية العميقة التي أسهمت في تشكيل شعوره بالمرارة والتحوّل الداخلي، وعلى رأسها فقد البصر، وما تبعه من مظاهر الشيخوخة، وهي كلها بواعث اغترابية ذات طابع حسيّ ونفسيّ، كوّنّت لدى الشاعر تصوّراً داخلياً قاتماً عن ذاته والوجود. إنّ هذه التجربة، بما تتطوي عليه من حسرة وفقدان وتشوّفٍ للماضي، تكشف عن تحوّل جوهري في علاقته بذاته وعالمه، وهو ما عبّر عنه بلغة شعرية مشبعة بالرمز والأسى، تجعل من هذه الأبيات وثيقة وجدانية صادقة تُجسّد ما خلفته البواعث النفسية من تمزّق داخلي وتصدّع شعوري.

ويواصل الشاعر تصوير تجربته الأليمة مع فقدان البصر، بقوله:^(١٦)

وَأَصْبَبْتُ فِي عَيْنِي الَّتِي	كَانَتْ هِيَ الدُّنْيَا بَعَيْنِ
عَيْنِ جَنَيْتُ بِنُورِهَا	نُورَ الْعُلُومِ وَأَيَّ عَيْنِ
حَالَانَ مَسَّتْني الْحَوَا	دَتْ مِنْهُمَا بِفَجِيعَتَيْنِ
إِظْلَامَ عَيْنٍ فِي ضِيَا	ءٍ مِنْ مَشْيِبِ سَرْمَدَيْنِ ^(١٧)
صُبْحٍ وَإِمْسَاءٍ مَعَا	لَا خِافَةَ فَأَعْجَبَ لِذَيْنِ

في هذه الأبيات، يعبر الشاعر عن حجم الفقد الذي ألمّ به، ويبرز أثره البالغ في حياته؛ فهو لا يتحدث عن فقد حاسة حسية فحسب، بل عن انقطاع صلته بالعالم الخارجي، فالعين التي فقدها لم تكن مجرد

أداة للرؤية، بل كانت بالنسبة إليه الدنيا كلها، فهي نافذته إلى المحيط، ومصدر إدراكه وتحصيله العلمي، وقد شكّل هذا الحدث الصادم باعثاً نفسياً عميقاً، غير نظرتة للوجود، وأفقدته الشعور بالتماهي مع العالم.

ويؤكد الشاعر أهمية البصر لا من حيث الرؤية المجردة فقط، بل كوسيلة لتحصيل العلم والمعرفة، مما يعبر عن شخصيته المفكرة، ويدل على أنه فقد الوسيلة التي كان من خلالها يستتير عقله ويتغذى وجدانه، وهنا تتداخل البواعث النفسية وتعمق، إذ لا ينفصل عن باعث آخر هو الشيب والتقدم في العمر، حيث يشير إلى اجتماع حالتين من الفجيعة: عاهة حسية وزوال شبابي، وكلاهما ينتميان إلى البواعث التي تُفجر في النفس مشاعر الحزن والعزلة والانكسار.

وتبرز هذه المشاعر بوضوح حين يُقارن الشاعر بين (إظلام العين) و(ضياء المشيب)، في تناقض ظاهري مرير، فالمشيب رغم إشراق لونه الظاهري، لا يحمل حياة أو أملاً، بل يُمثّل علامة خمود وذبول. أمّا العين، التي كانت موضع النور والمعرفة، فقد أظلمت، وبناءً على ما تقدّم، يظهر لنا تضاد مؤلم بين النور الحي الذي زال، والنور الظاهري الذي لا حياة فيه، في صورة تعبيرية رمزية تعكس تحولاً داخلياً سببته بواعث اغترابية قاسية.

ويصف حالته الراهنة بقوله:

صُبْحٌ وَإِمْسَاءٌ مَعًا لَا خَلْفَةَ فَاعْجَبْ لِذَيْنِ

وهو تعبير عن فقدان الإحساس بالزمن، حيث الصباح والمساء سيان لا فارق بينهما، إذ لا يرى الشمس في شروقها، ولا الليل في ظلمته، فكأن الزمن تجمّد في رتابة لا تنكسر، ولا يتبدّل. وهذه الصورة القاتمة تعبّر عن أثر البواعث النفسية المرتبطة بالعمى والعجز، حيث يفقد الإنسان تواصله مع التغيرات اليومية، ويغرق في زمن داخلي جامد، لا ملامح فيه سوى السكون والتكرار.

وقد عبّر الشاعر بذلك عن صورة وجودية مأزومة، تجسّد العمى لا كأثر جسدي فحسب، بل كحالة عزل داخلية وفصل تامّ عن كل ما يمنح الحياة توازنها، وكما ورد أن: ((مكفوف لا يدرك المصير الوخيم الذي يسير إليه، ولا يرى الهاوية السحيقة التي تردى فيها، وهو مكفوف لا يشاهد تلك الانياب الشيطانية الراهبة والتي تنهش في لحمه وعظمه حتى تتركه شبحاً محطماً))^(١٨)، فإن العمى هنا يُصوّر بوصفه محرّكاً

جوهرياً من البواعث النفسية التي أفضت بالشاعر إلى الإحساس الكامل بالخذلان الوجودي والعجز التام عن استعادة ذاته القديمة.

ويستمر الشاعر في التعبير عن معاناته النفسية التي ولدها فقدان البصر، حيث تتفاقم مشاعر العزلة والانكسار الداخلي، فيصور ذاته وكأنها منقطعة عن العالم، مشروخة في أعماقها، لا تجد حولها من يعينها أو يرشدها، فيقول^(١٩):

يَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ حِجَا	بِ جُنْحُهُ مُعْتَكِرُ
ظِلْمُهُ لَا يَنْجَلِي	وَصُبْحُهُ لَا يُسْفِرُ
لَيْسَ لَهُ إِلَى الْمَمَا	تِ آخِرٍ يُنْتَظَرُ
مَا فِي حَيَاةٍ مَعَهُ	لِذِي حَصَاةٍ وَطَرُ
غَادِرِنِي أَنْنِي	فِي كَسْرِ بَيْتِ حَجَرُ
لَا أَهْتَدِي لِحَاجَتِي	وَفِي اللَّيَالِي عِبَرُ

يوصل الشاعر في هذه المقطوعة التعبير عن محنته العميقة الناتجة عن فقدان البصر، مستعرضاً مشهداً داخلياً خانقاً، تسوده العتمة والاضطراب، حيث يتجلى الليل رمزاً للحزن المتراكم، والمصير المسدود؛ فالصورة التي يرسمها هنا ليست مجرد وصف لحالة زمانية، بل هي إسقاط وجودي لحالة نفسية مريرة، تتشكل بفعل باعثٍ حسيٍّ عنيفٍ تمثل في العمى، وما تبعه من عزلة داخلية وتشوشٍ في إدراك الزمن.

فالتمييز بين الفجر والليل قد تلاشى من وجدانه، ما يشير إلى خلل في العلاقة مع العالم، وتبدد للإيقاع الطبيعي الذي يمنح الحياة توازنها، وهذا التحول الحسي ليس عارضاً، بل هو نتيجة مباشرة للبواعث النفسية المتراكمة التي جعلت من الشاعر كائنًا يعيش زمنًا داخلياً لا يتبدل، تغيب فيه إشراقة الأمل، ويغلب عليه طابع التكرار القاتم.

يُعبّر الشاعر أيضاً عن يأسٍ مطبق حين يُقرّ بأن هذا الليل لا نهاية له إلا بالموت، وهو تعبيرٌ صريح عن فقدان المعنى، وغياب أفق الرجاء. وهنا تتضح سمات الاغتراب الوجودي الناجم عن الفقد الحسي، حيث يتحول الجسد إلى كيان هامشيّ، وتراجع الحياة إلى مجرد حركة بطيئة في ظلمة شعورية خانقة.

وما يزيد من قتامة الصورة هو إدراكه العميق بأن العقل، رغم حضوره، عاجز عن اجتراح أي معنى أو لذة ما دامت الحواس قد تعطلت. فتجربة العمى، بوصفها باعثاً نفسياً مركزياً، تُنتج خللاً في توازن الذات، وتجعلها تنظر إلى الحياة باعتبارها سجنًا داخليًا لا تُغيّره قوة عقلٍ أو تأمل.

ويكتف الشاعر هذه الرؤية حين يشبه نفسه بجزءٍ من بيت مكسور، أو بحجر جامد، وهي تشبيهات تحمل دلالات الجمود والعجز والانفصال، وتُعبّر ببلاغة عن حال الذات المتفككة، التي فقدت القدرة على الاستدلال، والحركة، والتفاعل. فالشاعر هنا لا يتحدث عن فقدان بصريّ فقط، بل عن انهيار إدراكي شامل، يجعل من أبسط الحاجات معضلة يومية، ومن الزمن سلسلة متكررة من العبر والتأملات الموجعة.

من خلال هذا المشهد، يتّضح أن الشاعر لم يعد يرى في حياته سوى ظلمة باطنة، لا تنقضي ولا تتبدل، وقد تحوّلت تجربته إلى منفى داخلي عميق، صنعته بواعث الاغتراب الحسية والنفسية المتشابكة، وعلى رأسها العمى، وتقدّم العمر، وما يصاحبهما من إحساس بالعجز، وانقطاع التفاعل مع الذات والعالم والآخر.

وَسَمِعَ ابْنَ التَّعَاوِيذِي مُنْشِدًا يُنْشِدُ قَوْلَ الصَّابِي * :

وَالْعُمُرُ مِثْلُ الْكَاسِ يَزُ سَبُّ فِي أَوَاخِرِهِ الْقَذَى

فقال (٢٠):

فَمَنْ شَبَّهَ الْعُمَرَ كَأْسًا يَقْرُ قَدْأَهُ وَيَرْسُبُ فِي أَسْفَلِهِ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْقَدْأَ طَافِيًا عَلَى صَفْحَةِ الْكَاسِ مِنْ أَوْلِهِ

هذا المشهد الشعري، يعبر الشاعر عن أثر البواعث النفسية من خلال موقف تأملي تجاه الزمن وفلسفة الحياة، إذ ينقد التصور الشائع الذي يشبه العمر بالكأس الذي لا يظهر فيه الكدر (القذى) إلا في نهايته. غير أن الشاعر، مستنداً إلى تجربته الحياتية القاسية، يعترض على هذا التشبيه، مؤكداً أن الكدر ملازم للعمر منذ بدايته، تماماً كما يطفو القذى على سطح الكأس من أول لحظة، وهذا التصور يكشف عن شعور داخلي بالانكسار والتشاؤم، نابع من باعث نفسي عميق يتمثل في فقدان الإيمان بفكرة الصفاء المتأخر أو الاستقرار الآتي في المستقبل، وهو ما يعكس رؤية سوداوية متشكّلة من تراكم الخيبات والخذلان.

إن اعتراض الشاعر لا يُفهم على أنه رد بلاغي أو تنفيذ شعري فحسب، بل يُعد تعبيراً وجودياً عن تجربة نفسية مريرة، تراكمت فيها آلام الفقر، والمرض، والعزلة، وخيانة المحيط. هذه التجارب لم تترك للشاعر مجالاً لتصديق أن الحياة تتوزع بين صفاء مؤقت وكدر لاحق، بل يرى أنها حياة ممتدة في حزنها، متجانسة في ألمها. ومن هنا تتجلى بواعث الاغتراب في موقفه، حيث يتشكّل وعيه الشعري من إدراك متشائم لا يثق في النقاء الأول، ولا في صفاء يُرتجى لاحقاً، بل يرى أن الكدر سابقٌ ولاحقٌ في آنٍ معاً.

هذا الموقف الشعري إذاً يُعبّر عن صراع نفسي داخلي بين الواقع القاسي الذي عاشه الشاعر، وبين التصوّرات الثقافية الشائعة التي تروّج للأمل التدريجي والانفراج القادم، فبينما يحتفظ المجتمع بصورة مثالية للحياة تتضمن بدايات مشرقة ونهايات مظلمة، يقدم الشاعر تجربته نقيضاً لذلك، رافضاً فكرة التطور الزمني من الفرح إلى الحزن، أو من النقاء إلى العطب، ومن هنا يكون موقفه علامة واضحة على عمق البواعث النفسية التي أثقلت ذاته، وأبعدته عن الانسجام مع محيطه الثقافي والاجتماعي، لتتكوّن لديه رؤية وجودية سوداوية تنكر فكرة الصفاء أصلاً، وتُحمّل الوجود منذ بدايته بطابع الحزن والخذلان.

وفي موضع آخر، يُعبّر سبط ابن التعاويذي عن حالة نفسية مرهقة ناجمة عن تقدّم العمر وما خلفه من عجز وضعف جسدي، حيث يُسجّل أثر المرض والشيخوخة على ذاته الشاعرة، ويصوّر كيف تراجع حضوره في محيطه الاجتماعي، وتبدّل استقبال الناس لشكواه، حتى ضاق بها العُدّال والزائرُونَ، وتحوّل الطبيب نفسه إلى يائسٍ من حاله. ورغم هذا الإهمال والإقصاء غير المعلن، لا يزال يتمسك ببقايا الأمل، رافضاً الانهيار الكامل أمام وطأة الضعف. إذ يقول^(٢١):

لَئِن سَئِمَ العُدّالُ طَوَلَ شِكايتِي وَمَلَّ حَديثي زائِري وَمُجالِسي
وَعادَ طَبيبِي مِن سَقامي آيساً فَمَما أَنا مِن رُوحِ الحَياةِ بِأيسِ

في هذين البيتين تتجلى البواعث النفسية الناتجة عن الشيخوخة والمرض، حيث تتقاطع التجربة الجسدية المتدهورة مع الإحساس العاطفي بالخذلان، فتظهر الذات منهكة، غير قادرة على التواصل مع محيطها، بعدما تحوّلت شكواها إلى صوت متكرر يُقابل بالملل والجفاء من أقرب المحيطين بها، كالأصدقاء والزائرين. وهذه الاستجابة من المجتمع تُجسّد أحد أبرز بواعث الاغتراب، حيث يفقد الفرد التفاعل الإنساني والدعم الاجتماعي، ويصبح وجوده عبئاً صامتاً بدلاً من أن يكون عنصراً فاعلاً.

أما موقف الطبيب الذي يُعلن يأسه من الشفاء، فلا يُؤخذ هنا على محض معناه الطبي، بل يتخذ دلالة رمزية أعمق، تدلّ على أن منظومة الحياة ذاتها بما فيها من مؤسسات معرفية أو علاجية قد سحبت منه الثقة، وأقصته عن أمل الشفاء والاستمرار، وكأنه صار في نظرهم جسداً ينتظر النهاية. ومع ذلك، يتمسك الشاعر بما تبقى من روح الحياة، رافضاً أن تتطفئ جذوة الأمل داخله، مما يعبر عن صراع داخلي عنيف بين تدهور الجسد والتشبث النفسي بالحياة والمعنى.

وتتضح الصورة أكثر حين يتحوّل الفرد من شخص حاضر وفاعل إلى كائن هامشي، تُستبدل مشاعر التقدير نحوه بالتجاهل والضجر، فينعكس هذا الموقف الخارجي على وعيه الذاتي، ويشعر بانكسار مزدوج: من جهة تراجع قوته الجسدية، ومن جهة تغيير موقف المجتمع منه. وعليه، تُمثّل هذه الأبيات تعبيراً دقيقاً عن أثر البواعث النفسية التي ترافق الشيخوخة والمرض، في مجتمع لا يرحّب بالضعف، بل يدفعه إلى هوامش الحياة، ويترك صاحبه يواجه وحده ما تبقى من الانحدار والتأمل المرير.

فالمرض من أبرز البواعث النفسية التي ولدت لدى سبط ابن التعاويذي شعوراً بالاغتراب الداخلي، إذ يعكس في شعره حالة من الانكسار الجسدي والضعف الوجودي، ويقارن بين ماضيه المليء بالعافية وحاضره المرهق بالأوجاع، مما يعبر عن فقدان التوازن بين الذات والزمن، ويُعمّق شعوره بالعجز والخذلان، إذ يقول^(٢٢):

وَهَا أَنَا ذَا مِنْ بَعْدِ أَمْنٍ وَصِحَّةٍ مُسَامِرٌ أَوْجَاعٍ مُسَاوِرٌ أَوْ جَالٍ

أُرْفَعُ عُمُرًا أَخْلَقْتُهُ بِكَرْمَا اللَّأْمِ سِيَالِي إِلَى كَمْ يُرْفَعُ الْخَلْقُ الْبَالِي

تُجسّد هذه الأبيات بوضوح البعد النفسي الناتج عن المرض باعتباره من أبرز بواعث الاغتراب الداخلي في تجربته، إذ يعكس فيها انكسار الجسد وتحوّل العافية إلى وهن، فالشاعر لا يصف حالته الجسدية باعتبارها عارضاً عابراً، بل بوصفها تحوّلاً وجودياً عميقاً، جعله يألف الأوجاع ويجالس الآلام، بعد أن كان في سعة من الأمان والصحة. وهذه المقارنة بين ماضٍ مفعم بالحَيوية وحاضرٍ مثقل بالأوجاع تُبرز المفارقة بين صورتين للذات: إحداهما منتمية للحياة، والأخرى منكسرة ومعزولة عنها.

كما يظهر الزمن في هذا السياق بوصفه عاملاً فاعلاً في الإنهاء والتآكل، إذ تتآكل الحياة شيئاً فشيئاً، وتبلى كما تبلى الثياب، ويضطر الشاعر إلى ترقيعها رمزياً، في إشارة إلى محاولاته البائسة للإبقاء

على ما تبقى من العمر، رغم ما فيه من هشاشة. هذا التصوير يعبر عن اغتراب النفس عن جسدها، إذ لم يعد الجسد وعاءً صالحاً للحياة، بل عبئاً ثقيلاً تتعامل معه الروح على مضض.

وبذلك، يتجلى المرض في هذه الأبيات لا بوصفه ألماً عضوياً فحسب، بل باعثاً نفسياً جوهرياً يُفضي إلى قطيعة داخلية مع الماضي، وقلقٍ من المستقبل، وشعورٍ متعاضم بالعجز والعزلة، ما يرسخ الاغتراب النفسي لدى الشاعر بوصفه ثمرة مباشرة لتدهور الجسد وتآكل الزمن.

ثم يقول الشاعر في تصوير بالغ التأثير^(٢٣):

أَهْ لِعُمُرٍ مِنْ يَدَيِ مُخْتَطِّفٍ مُسْتَلَبٍ
يُنْهِيهِ كُرُّ اللَّيَا لِي وَاخْتِلَافُ الْحَقَبِ
هَدْبِي دَهْرِي وَمَا دَهْرِي بِالْمُهْدَبِ

تصوّر هذه الأبيات حالة وجودية شديدة الاضطراب، ناتجة عن الإحساس بانهيار السيطرة على مجرى الحياة، فالعمر لم يعد ملكاً للشاعر، بل أضحي مستلباً منه، تتخاطفه الأيام وتقلبات الزمن، دون أن يكون له عليه سلطان. وهذا الانسلاخ من الزمن الطبيعي يعكس أثراً من بواعث الاغتراب، حيث تتجلى مشاعر العجز واللاجدوى، ويغدو الإنسان كمن يُقاد في طريق لا يختاره، ولا يملك توجيهه.

ويظهر الزمن في هذه الأبيات لا بوصفه إطاراً ناظماً للتجربة، بل كقوة قاهرة، لا تهدب الذات بل تقسو عليها، فلا تمنحها النضج، بل تراكم عليها الهمّ والتعب. ومن هنا تبرز صورة الشاعر الذي تعرّض لصدمات متوالية أنتجت تمزقاً داخلياً، وانفصلاً وجدانياً بين الذات ومسار الحياة.

فهذا الشعور بالاستلاب أمام الزمن، وبتوالي التحولات التي لا قدرة للشاعر على دفعها، يكشف عن أحد أفسى بواعث الاغتراب، حين يجد الإنسان نفسه ضحية لسياقات متغيرة تفوق طاقته، وتدفعه إلى حالة من القلق الوجودي، وفقدان الانسجام مع ذاته ومسيرته. وهكذا يتحول العمر في هذه الرؤية من تجربة تنضج الإنسان، إلى سلسلة من الانتهاكات المستمرة، التي تتركه هشاً، متعباً، وممزقاً من الداخل.

ومع التقدّم في السن، إذ بلغ شاعرنا مرحلة الشيخوخة، يتحوّل صوته في مدوّنته إلى ما يشبه صوت الواعظ المجرب، الذي لا يتحدث من موقع المعرفة وحده، بل من موضع الألم الداخلي والخذلان المتراكم.

ويبدو شعره في هذه المرحلة محملاً بمزيج من الحكمة والانكسار، حيث لم تعد التجربة لديه مجرد سردٍ لمواقف أو ذكريات، بل تحوّلت إلى بصيرةٍ مفعمة بالحسرة، ونظرة فاحصة في طبيعة الدنيا، واقتراسها لأبنائها، وانكشاف زيف المظاهر التي كانت تملأ مرحلة الشباب والصباء. إذ يقول^(٢٤):

حُذِّمِ مِنْ شَبَابِكَ وَأَنْتَهَرُ	أَيَّامَ صِحَّتِكَ الْفُرْصِ
أَوْ مَا تَرَى ظِلَّ الشَّبَابِ	بَبَةٍ عَنْ عِدَارِكَ قَدْ قَلَصَ
فَأَعْرِضْ عَنِ الدُّنْيَا الْمَشُوعِ	بَبَةٍ بِالنَّوَائِبِ وَالْعَصَصِ
كَمْ جَرَعْتَ أِبْنَاءَهَا	مِنْ فَتْكِهَا بِهِمُ النَّعْصِ
وَاعْلَمْ إِذَا مَا زِدْتَ مَا	لَا أَنَّ عُمْرَكَ قَدْ نَقَصَ
وَعَدَا تَرَاهُ فِي يَدِ الْ	سُورَاتِ مُقْتَسَمًا حِصَصِ
وَأَنْظُرْ لِطَائِرِ نَفْسِكَ الْ	مَسْجُونِ فِي هَذَا الْفَقْصِ
حَتَّى تَرَاهُ مِنَ الْمَخَا	وَفِ وَالْمَكَارِهِ قَدْ خَلَصَ

هذه الأبيات تتجلى بواعث الاغتراب التي وسمت وعي الشاعر بعد خوضه لتجربة الشيخوخة، حيث يعظ من واقع التجربة لا التظير، ناصحاً باغتنام الصحة والشباب قبل أفولهما، لأن الدنيا لا تمنح فرصها إلا عابراً، ثم ما تلبث أن تنزل نوازلهما وتذق الإنسان مراراتها، وإنّ الوعي الحادّ بقصر المدة، وسرعة التحول، وتقلب الأحوال، هو ما يُحرّك هذا الخطاب الشعري، ويمنحه طابعاً وجدانياً مرهقاً، متولّداً من معاناة شخصية، لا من تأمل فلسفي مجرد.

ويؤكد الشاعر أن ازدياد المال لا يُعدّ مكسباً، بل هو علامة على نقص العمر، لأن النهاية المحتومة هي زوال الجسد واقتسام التركة، وهو ما يشير إلى مفارقة موجعة بين الظاهر والمآل. أما تصوير النفس على هيئة طائر مسجون في قفص الجسد، فيُشكّل مشهداً رمزياً بالغ التعبير عن شعور الإنسان بالضيق الوجودي، وانتظار الخلاص من الآلام والمخاوف، مما يعكس أثرًا عميقاً من البواعث النفسية المتراكمة التي تفضي إلى الانفصال الشعوري عن الجسد والدنيا في آنٍ معاً.

وبذلك، تكشف هذه الأبيات عن صوت شعري ممتزج بالحكمة والمرارة، صادر عن تجربة حيّة أثقلها التحول الجسدي والزمني، فبرزت فيه بواعث الاغتراب بوصفها نتاجاً لتراكم العجز، والخسارات، والخذلان، والانكشاف الوجودي في آخر العمر، حين تصير الحياة عبئاً ثقيلاً، لا مخرج منه إلا بالمفارقة الكاملة.

المحور الثاني الفقر :

ومن البواعث النفسية التي أسهمت بعمق في تشكيل التجربة الشعرية عند سبط ابن التعاويذي ما يتصل بالفقر، بوصفه عاملاً جوهرياً يحدث تمزقاً داخلياً ويزرع في النفس شعوراً بالهوان والخذلان. فالفقر لا يُختزل في حرمان مادي، بل يتغلغل إلى الوعي والوجدان، مؤثراً في كرامة الإنسان وصورته الذاتية، حتى ورد عن الإمام علي (عليه السلام): ((الفقر يخرس الفطن عن حجته، والمُقلّ غريب في بلدته))^(٢٥)، وهي عبارة تختصر أثر الفقر في جعل الإنسان مستضعفاً في بيئته، مقصياً من فضاء التفاعل الاجتماعي والإنساني، مهما بلغ من عقل أو فطنة ، فالفقر لا يقتصر أثره على الجانب المادي، بل يتعداه إلى ضرب الكيان النفسي للفرد، حتى وصفه الإمام علي (عليه السلام) بـ((الموت الأكبر))^(٢٦) إشارة إلى شدة وطأته على النفس والوجدان.

اذ يقول^(٢٧):

فَإِنْ كُنْتَ تَعْرِفُ حَقَّ الْجَوَارِ	وَالْأَفْحَابِ عَلَيَّ غَارِبِي
وَتَعْلَمُ أَنَّي كَثِيرُ الْعِيَالِ	قَلِيلُ الْجَرَايَةِ وَالْوَأَجِبِ
وَلَسْتُ عَلَى ظَمْتِي قَانِعًا	بِوَرْدٍ مِنَ الْوَشْلِ النَّاضِبِ ^(٢٨)
وَلَا شَكَّ فِي أَنَّي هَارِبٌ	فَدَبَّرَ لِنَفْسِكَ فِي كَاتِبِ

تعكس هذه الأبيات تمثيلاً دقيقاً لباعث الفقر في إحداث حالة من التمزق النفسي والانكسار الداخلي، إذ يُصوّر الشاعر كيف أدى به العوز إلى استجداء المعونة من شخص يُفترض فيه أن يتسم بالمروءة وحسن الجوار. ومن ثم فإن التجربة التي يعانيتها الشاعر ليست اقتصادية بحتة، بل وجدانية تدمر كرامته وتُشعره بالخذلان والانفصال عن محيطه الإنساني.

وتتضح وطأة هذا الفقر حين يُعبّر عن عدم قناعته بما يَرُدُّه من وشلٍ ناضب، أي ما يتساقط عليه من رزقٍ قليل لا يروي ولا يسدّ رمقاً، وهي صورة حسية تتقلب إلى رمز للخذلان والحرمان، وتُجسد شعوراً دائماً بالعجز والاحتياج.

وختام الأبيات يحمل تهكماً مرّاً، إذ يُلقى مسؤولية العلاقة على الطرف الآخر، ويُعلنه هارباً، وهو انقطاع الأمل في النجدة والتضامن، ما يؤكد أن الفقر في تصوّره ليس فقدان مالٍ فقط، بل فقدان للأمان الاجتماعي والمروءة الإنسانية، وهو ما يرسّخ الإحساس ببواعث نفسية قاسية تولّد اغتراباً داخلياً شاملاً.

كما يتجلى هذا المعنى أيضاً بوضوح في قوله^(٢٩):

فَقَرًا فَتَحَتْ بِهَا فَمِي وَجَعَلْتُهَا سَبَبًا لِسَدِّ خَصَاصَتِي وَمَفَاقِرِي

يندرج هذا البيت ضمن باعث الاغتراب النفسي المرتبط بالفقر، إذ يُعبّر الشاعر فيه عن اضطراره إلى اتخاذ الشعر، وتحديدًا المدح، وسيلة لسدّ حاجته المادية. ف(فتح الفم) هنا يحمل دلالة رمزية واضحة على التكلّم بدافع الحاجة، لا بدافع التعبير الحر، أي أن الشاعر لم يقل الشعر عن رغبة فنية أو موقف وجداني، بل أُجبر عليه دفعًا للجوع وضيق العيش.

أما قوله إن المدح كان سببًا (لسدّ خصاصتي ومفريقي)، فيُحيل إلى معاناة شديدة مع الفقر المدقع، إذ تعبّر (الخصاصة) عن شدة الاحتياج، بينما تشير (المفاقر) إلى مظاهر البؤس والفاقة المتعددة التي أنهكتها. بهذا المعنى، يتحوّل الشعر من أداة للسمو والتعبير إلى وسيلة للبقاء، وهو ما يعكس انقسامًا داخليًا بين ما يريده الشاعر لقيّمته الذاتية، وما يُضطر إليه لضرورات الحياة، مما يُفضي إلى شعور عميق بالاغتراب عن الذات والرسالة والواقع، ويجعل التجربة الشعرية مشروطة بالحاجة، لا نابعة من الحرية.

يمضي سبط ابن التعاويذي في تصوير الفقر بوصفه باعثًا من بواعث الاغتراب النفسية، لا من خلال المناشدة المباشرة والاستغاثة فحسب، بل عبر تجليات يومية دقيقة تُبرز البؤس في أبسط تفاصيل العيش، ومنها ما يتصل بالمظهر الشخصي والملبس، فالفقر هنا لا يُعبّر عنه بحرمانٍ ماديّ فقط، بل بحرمانٍ من الكرامة والستر، إذ تصبح حتى (الجبة) رمزًا لانكشاف الذات وهوانها أمام قسوة الواقع.

إذ يقول^(٣٠):

جُبَّةٌ طَالَ عُمْرُهَا فَغَدَّتْ تَصَدُّ لُحٌّ أَنْ يُسْمَعَ الْحَدِيثَ عَلَيْهَا

كُلَّمَا قُلْتُ فَرَجَ اللَّهُ مِنْهَا أَحْوَجْتُ خِسَّةَ الزَّمَانِ إِلَيْهَا

في البيت الأول، يصف الشاعر رداءه البالي (الجبة) الذي طال عليه الزمن حتى أصبح يصلح لأن يُلقى عليه الحديث، في استعارة ساخرة توحى بأن الجبة باتت أقدم من كل ما حولها، حتى صارت كأنها (حلقة علم) من شدة قِدَمها. هذه الصورة الرمزية تُشير إلى حالة مزريّة من الفقر، حيث لا يقوى الشاعر على تبديل ثيابه أو تحسين مظهره، ما يُفضي إلى شعور داخلي بالخجل والانكشاف الاجتماعي.

أما في البيت الثاني، فيعبّر عن خذلان الأمل، إذ كلما توهمّ الفرج ودعا الله بزوال الشدة، تُجبره خسة الزمان على البقاء في هذا الرداء المُمزق. ويستمر في ارتدائه لحاجته إليه، رغم ما فيه من البلى والانكشاف. وهنا يُجسد الزمان بوصفه فاعلاً في تعميق الأزمة، ويُظهر الشاعر تعارضاً مؤلماً بين الرجاء بالفرج، والواقع المرير الذي يُلزمه بالتمسك بالمهانة.

تعكس هذه الأبيات بصورة جليّة وتر الفقر بوصفه تجربة حسية ويومية تُحاصر الفرد في تفاصيله البسيطة، وتُسهّم في تشكيل باعث من بواعث الاغتراب النفسية، نابع من شعور بالدونية والتهميش، مما يجعل هذه الصورة متصلة عضويًا برؤية الشاعر لذاته في مجتمع لا يرحم الفقير، ولا يمنحه فرصة للكرامة أو التقدير.

ويواصل سبط ابن التعاويذي رسم ملامح الفقر لا بوصفه عوزاً مادياً فحسب، بل بوصفه حالة وجودية تُفضي إلى بواعث اغتراب نفسية مريرة، يعاني فيها الإنسان من انكسار داخلي ناتج عن تهميش المجتمع له وتتكّره لكرامته، فبعد تصويره للجبة البالية التي صارت موضعاً للسخرية، وعلّق عليها أمل الفرج دون جدوى، ينتقل إلى مشهد أكثر فجاجة في ساحة الجامع الفيحاء، حيث لم يعد فقره أمراً داخلياً، بل مشهداً معلناً أمام الناس ومادة للتعليق، حيث انكشفت حالته أمام الناس، ولم يعد فقره أمراً شخصياً داخلياً، بل مشهداً معروضاً للنظر والتعليق. فقال^(٣١):

وَقَائِلٍ قَالَ لِي لَمَّا رَأَيْتَنِي فِي
فِي رَحْبَةِ الْجَامِعِ الْفَيْحَاءِ أَجْمَعُ أَدَّ
تَشْرِينَ وَالْبَرْدُ قَدْ وَافَتْ كِتَابِيَهُ
سَنَافِي وَأَطْلُبُ شَيْئًا مَاتَ صَاحِبُهُ
وَأَنْتَ شَاعِرٌ مَوْلَانَا وَكَاتِبُهُ
أَتَشْتَرِي جُبَّةً تَلْقَى الشِّتَاءَ بِهَا

تصوّر هذه الأبيات باعث الفقر بوصفه سبباً مباشراً للاغتراب عن الذات والكرامة، حيث يظهر الشاعر في هيئة منكسرة في مكان عام، يعاني من البرد والعوز، رغم مكانته ككاتب للسلطان وشاعره الرسمي، ويزداد الشعور بالإقصاء حين يعلّق أحدهم بسخرية، مستكراً حاجته إلى جبة تقيه برد الشتاء، وكأن الفقر لا يليق بمن يشغل منصباً رسمياً. هذا التناقض بين الموقع الاعتباري والواقع المعيشي يعمّق الباعث النفسي القائم على التمزق بين ما يبدو عليه الشاعر في صورته العامة، وما يعانيه في واقعه الخاص.

تتحد هنا صورتنا الجبة: الأولى داخل البيت، حيث يكابد الفقر بصمت؛ والثانية في الفضاء العام، حيث يُعزى تمامًا أمام الناس، ويصبح فقره مشهّدًا معلنًا، ما يُفضي إلى تأزم نفسي ناتج عن التهميش وانعدام التقدير.

ختامًا، يتجلّى من خلال شعر سبط ابن التعاويذي أن بواعث الاغتراب النفسية، وعلى رأسها باعث الفقر، لم تكن هامشًا أو تفصيلًا ثانويًا، بل كانت في قلب تجربته الشعرية، وقد تفاعلت مع مكونات شخصيته وموقعه الاجتماعي. فالعمى، والشيخوخة، وضيق الحال، كلّها عوامل ضربت في أعماق وجدانه، فانعكست على شعره بألم داخلي عميق، فجاءت مدوّنته تعبيرًا عن ذاتٍ مسحوقة، متألّمة، تنوء تحت وطأة مجتمع لم يلتفت لمعاناته، ولا أنصف حاجته، ولا احترام مقام

الهوامش

- (١) يُنظر: البواعث الذاتية العدمية في الشعر العراقي المعاصر ، جاسم حسين سلطان الخالدي و زينب داخ مطر، بحث مستل من أطروحة الدكتوراه ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة واسط ، ص ١١١٢
- (٢) يُنظر: الشعور بالاغتراب عن الذات وعن المحيط الاجتماعي عند الكفيف (دراسة عيادية لست حالات) ، يحيوي صفاء، رسالة ماجستير ،جامعة وهران ، كلية العلوم الاجتماعية ، الجزائر ، ٢٠١١، ص ٨٣٨٤.
- (٣) يُنظر: الأدب وفنونه دراسة ونقد، عز الدين إسماعيل ،ص ١٢٢.
- (٤) الاختضابُ بالحناء والكتم من كتاب الشيب والخضاب لعبد الرحمن بن علي ابن الجوزيّ البغدادي الحنبلي (ت ٥٩٨هـ)، تحقيق ودراسة: محمد عدنان عبد الرحمن الكروي ، مجلة علمية وثقافية وتربوية محكمة ، كلية التربية للبنات ، العدد ١١ ، ٢٠١٩ ، ص ١٧٠.
- (٥) يُنظر: وصف الشيب وبكاء الشباب في الشعر الجاهلي دراسة أدبية نقدية ، مواهب أحمد علي محمد، جذور، العدد ٤٢، السعودية ، ٢٠١٦، ص ٢٨٤.
- (٦) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية ، جميل صليبا ،ص ٤٦٦.
- (٧) اسرار التحكم الذاتي في المشاعر والعواطف، عبير حميدي، ط ١، دار سما للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥، ص ٥.
- (٨) في النقد الأدبي، ايليا الحاوي، ط ٤، دار الكتب اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ج ٢ / ١٠.
- (٩) يُنظر: تجليات الحزن في شعر اسامة بن منقذ ، اشواق نزيعة ، اطروحة دكتوراه ، جامعة محمد خيضر، كلية الآداب واللغات ، بسكرة، ٢٠١٩، ص ٢٤.
- (١٠) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني (ت ٦٤٨ هـ) ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة ، ط ٣، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨٦، م ١١، ص ١١.

- (١١) يُنظر: معجم الأدباء (ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، ٦/٢٥٦١.
- (١٢) يُنظر: سبط بن التعاويذي - حياته - شعره ، نوري شاكر الألوسي ، ص ٦٥.
- (١٣) يُنظر: ظاهرة الحزن في شعر حادثة كف البصر عند سبط ابن التعاويذي ، سلامة هليل الغريب ، كلية الآداب ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، الاردن ، المجلد ١٤ ، العدد ١ ، ٢٠١٧ ، ص ٢٤٠.
- (١٤) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص ٧٠٣-٧٠٤.
- (١٥) الشاعر وذاكرة الطفل في الشعر العربي، عمر أحمد الربيعات، رسالة دكتوراه جامعة مؤتة، الأردن، ٢٠١٠، ص، ٣.
- (١٦) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص ٧٠٤٧٠٥.
- (١٧) السرد الدائم ، القاموس المحيط ، ص ٧٦٧.
- (١٨) في عالم المكوفين، احمد الشرباصي ، ط ١ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر الفجالة ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٧٦٧.
- (١٩) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص ٣٦٤.
- (٢٠) ديوان سبط ابن التعاويذي : ٥٨٦-٥٨٧.
- * أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الصابئ (٣١٣-٣٨٣هـ) كاتب وأديب صابئي من حران، برع في الطب والرياضيات والأدب، وتقلد رئاسة ديوان الإنشاء في بغداد سنة ٣٤٩هـ لبراعته في الترسيل وكتابة الرسائل الرسمية، نشأ في بيت علم، وكان في خدمة كبار القادة العباسيين، ومن أبرز أعلام النثر الفني في العصر العباسي. يُنظر: معجم الأدباء (ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، ج ١ / ١٣٠١٤٨.
- (٢١) ديوان سبط ابن التعاويذي،
- (٢٢) ديوان سبط ابن التعاويذي، ص ٥٨٠.
- (٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٣٨.
- (٢٤) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص ٤٢٢ ٤٢٣.
- (٢٥) شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية، ص: ٨٧. المُقل: الفقير
- (٢٦) المصدر نفسه : ص ٣٨٦.
- (٢٧) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص ١٣٥.
- (٢٨) الوشل : سال أو قطر ، ويقال الرجل اذا ضعف واحتاج وافتقر ، يُنظر : القاموس المحيط ، الفيروز آبادي ، ص ١٤٠١ ، والناضب : سال وجرى المصدر نفسه ، ص ١٢٩٠.
- (٢٩) ديوان سبط ابن التعاويذي ، ص ٢٩٨.
- (٣٠) المصدر نفسه ، ص ٧٢٤.
- (٣١) ديوان سبط ابن التعاويذي، ص ١٤٠.

المصادر والمراجع:

الكتب:

١. الأدب وفنونه دراسة ونقد عز الدين إسماعيل (ت ١٤٢٨ هـ)، ط١، دار الفكر العربي، بيروت لبنان.
٢. اسرار التحكم الذاتي في المشاعر والعواطف، عيبر حميدي، ط ١، دار سما للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٥م.
٣. ديوان سبط التعاويذي، تحقيق: ممدوح محمد نصر، ط ، دار أنوار الأزهر للنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢١م.
٤. سبط ابن التعاويذي حياته وشعره ، نوري شاکر الآلوسي ، مطبعة الأزهر ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٧٥م.
٥. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد، تحقيق :محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية.
٦. في النقد الأدبي، ايليا الحاوي، ط ٤ ، دار الكتب اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٩.
٧. في عالم المكفوفين، احمد الشرباصي ، ط ١، دار النهضة العربية للطباعة والنشر الفجالة ، القاهرة ، ١٩٥٦م.

٨. القاموس المحيط ، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧ هـ) - راجعه واعتنى به :

انس محمد الشامي و زكريا جابر احمد ، دار الحديث - طبع - نشر - توزيع ، القاهرة ،

٢٠٠٨م.

٩. معجم الأدباء (ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب) ، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ، تحقيق :احسان عباس ،ط١،

دار الغرب الاسلامية ، بيروت ، ١٩٩٣م.

١٠. المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية ، جميل صليبا ، الشركة

العالمية للكتاب دار الكتاب العالمي ، بيروت، لبنان ، ١٩٩٤م.

١١. منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني (ت ٦٤٨ هـ) ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة

ط٣، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ١٩٨٦م.

الرسائل والأطاريح:

١. البواعث الذاتية العدمية في الشعر العراقي المعاصر ، جاسم حسين سلطان الخالدي و زينب دايب مطر، بحث

مستل من أطروحة الدكتوراه ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة واسط .

٢. تجليات الحزن في شعر اسامة بن منقذ ، اشواق نزيعة ، اطروحة دكتوراه ، جامعة محمد خيضر، كلية الآداب

واللغات ، بسكرة، ٢٠١٩م.

٣. الشاعر وذاكرة الطفل في الشعر العربي، عمر أحمد الربيعات ،رسالة دكتوراه ، جامعة مؤتة، الكرك الأردن،

٢٠١٠م.

٤. الشعور بالاغتراب عن الذات وعن المحيط الاجتماعي عند الكفيف دراسة عيادية لست حالات ، يحيوي صفاء،

رسالة ماجستير ،جامعة وهران ، كلية العلوم الاجتماعية ، الجزائر ، ٢٠١١.

المجلات والدوريات:

١. الاختضابُ بالحناء والكتم من كتاب الشيب والخضاب لعبد الرحمن بن علي ابن الجوزيّ البغدادي الحنبلي (ت

٥٩٨هـ)، تحقيق ودراسة: محمد عدنان عبد الرحمن الكروي ، مجلة علمية وثقافية وتربوية محكمة ، كلية التربية

للبنات ، العدد ١١ ، ٢٠١٩ .

٢. ظاهرة الحزن في شعر حادثة كف البصر عند سبط ابن التعاويذي ، سلامة هليل الغريب ، كلية الآداب ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، الاردن ، المجلد ١٤ ، العدد ١ ، ٢٠١٧.
٣. وصف الشيب ويكاء الشباب في الشعر الجاهلي دراسة أدبية نقدية ، مواهب أحمد علي محمد ، جذور ، العدد ٤٢ ، السعودية ، ٢٠١٦.

Sources and References

Books:

1. Literature and Its Arts: Study and Criticism, Izz Al-Din Ismail (d. 1428 AH), 1st Edition, Dar Al-Fikr Al-Arabi, Beirut, Lebanon.
2. The Secrets of Self-Control over Feelings and Emotions, Abeer Humaidi, 1st Edition, Sama Publishing and Distribution, 2015.
3. The Diwan of Sibt Ibn Al- Ta'awithi, edited by Mamdouh Muhammad Nasr, Anwar Al-Azhar Publishing and Distribution, Cairo, 1442 AH / 2021 AD.
4. Sibt Ibn Al- Ta'awithi: His Life and Poetry, Nouri Shaker Al-Alousi, Al-Azhar Printing Press, Baghdad, 1st Edition, 1975.
5. Sharh Nahj Al-Balagha (Explanation of Nahj Al-Balagha), Ibn Abi Al-Hadid, edited by Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim, Dar Ihya' Al-Kutub Al-Arabiya.
6. On Literary Criticism, Ilyas Al-Hawi, 4th Edition, Dar Al-Kutub Al-Lubnaniya, Beirut, 1979.
7. In the World of the Blind, Ahmad Al-Shirbasi, 1st Edition, Dar Al-Nahda Al-Arabiya for Printing and Publishing, Al-Faggala, Cairo, 1956.

8. Al-Qamus Al-Muhit (The Comprehensive Dictionary), Majd Al-Din Muhammad bin Yaqub Al-Fayrouzabadi (d. 817 AH), reviewed and supervised by Anas Muhammad Al-Shami and Zakariya Jaber Ahmad, Dar Al-Hadith for Printing, Publishing, and Distribution, Cairo, 2008.
9. Mu'jam Al-Adaba' (Irshad Al-Arib ila Ma'rifat Al-Adib), Yaqut Al-Hamawi (d. 626 AH), edited by Ihsan Abbas, 1st Edition, Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut, 1993.
10. Philosophical Dictionary: Arabic, French, English, and Latin Terms, Jamil Saliba, Al-Sharika Al-Alamiya Lil-Kitab / Dar Al-Kitab Al-Alami, Beirut, Lebanon, 1994.
11. Manhaj Al-Bulgha' wa Siraj Al-Udaba', Hazim Al-Qartajanni (d. 648 AH), introduction and edition by Muhammad Al-Habib Ibn Al-Khouja, 3rd Edition, Dar Al-Gharb Al-Islami, Beirut, 1986.

Theses and Dissertations:

1. The Nihilistic Personal Motives in Contemporary Iraqi Poetry, Jasim Hussein Sultan Al-Khalidi and Zainab Daikh Matar, research extracted from a Ph.D. dissertation, College of Education for Human Sciences, University of Wasit.
2. Manifestations of Grief in the Poetry of Usama Ibn Munqidh, Ashwaq Nazee'a, Ph.D. Dissertation, University of Mohamed Khider, Faculty of Letters and Languages, Biskra, 2019.
3. The Poet and the Child's Memory in Arabic Poetry, Omar Ahmad Al-Rabihat, Ph.D. Dissertation, Mutah University, Karak, Jordan, 2010.
4. The Feeling of Alienation from the Self and the Social Environment Among the Blind: A Clinical Study of Six Cases, Yahyaoui Safaa, Master's Thesis, University of Oran, Faculty of Social Sciences, Algeria, 2011.

Journals and Periodicals:

1. Dyeing with Henna and Katam from the Book of Grey Hair and Dyeing, by Abdulrahman Ibn Ali Ibn Al-Jawzi Al-Baghdadi Al-Hanbali (d. 598 AH), edited and studied by Muhammad Adnan Abdulrahman Al-

Kurwi, a peer-reviewed scientific, cultural, and educational journal, College of Education for Women, Issue 11, 2019.

2. The Phenomenon of Grief in the Poetry of the Incident of Blindness in Sibt Ibn Al-Taw'awidhi's Poetry, Salamah Hleel Al-Ghareeb, College of Arts, Union of Arab Universities Journal for Literature, Jordan, Vol. 14, Issue 1, 2017.

3. The Description of Grey Hair and Lamentation of Youth in Pre-Islamic Poetry: A Literary Critical Study, Mawahib Ahmad Ali Muhammad, Judhour, Issue 42, Saudi Arabia, 2016.